جامعة الإخوة منتوري-قسنطينة1
كلية الآداب واللغات
قسم الآداب واللغة العربية

اسم الأستاذ(ة): ليندة خراب
المقياس: السرديات العربية الحديثة
السنة: أولى ماستر
التخصص:أدب حديث ومعاصر
النوع: تطبيق
المجموعة: 1
الفوج: 1-2

الأعمال الموجّهة في مقياس السرديات العربية الحديثة
إعداد الدكتورة :ليندة خراب

عنوان الحصة التطبيقية الأولى: روايات جرجي زيدان التاريخية- قراءة في رواية صلاح الدين الأيوبي .

مقدّمة:

انتشرت الرواية التاريخية في الأدب العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر حتّى العقد الأول من القرن العشرين، وكان جرجي زيدان

رائدا لهذا النوع من الروايات التي بلغ عددها نيفا وعشرين رواية، وتعدّ رواية "صلاح الدين الأيوبي" واحدة من روايات "سلسلة تاريخ الإسلام" ، وهي الرواية التي يمكن أن تكون مقاربتها مطيّة للتعرّف على بعض خصائص كتابة الرواية التاريخية بين ظهراني جرجي زيدان.

التعريف بجرجي زيدان:

ولد جرجي بن حبيب زيدان في بيروت سنة 1861، التحق بالكلية السورية الإنجيلية" الجامعة الأميريكية "ودرس بها الطب سنة واحدة، ثمّ غادر إلى مصر وعمل في الترجمة والصحافة والتأليف ، ثمّ مترجما في الحملة الإنجليزية على السودان، زار أنجلترا ومنها عاد إلى مصر وأنشأ مجلة الهلال 1892.

له تآليف كثيرة في التاريخ وفلسلفة اللغة والروايات التاريخية نُحصي منها: تاريخ مصر الحديث (1889)، وتاريخ التمدن الإسلامي (1902)،وتاريخ آداب اللغة العربية(1911).توفي في القاهرة سنة 1911.

قراءة في العنوان والعنوان التلخيصي:

اكتفى جرجي زيدان باختيار اسم علمٍ مفردٍ :"صلاح الدين الأيوبي" عنوانا لروايته، لأنّ حضور هذا الاسم لوحده كافٍ لإثارة قراءة تناصية للرواية مع التاريخ، ولتحفيز مرجعية القارئ الذي يُفترض أنّه يعرف صلاح الدين الأيوبي ، بطل معركة حطين وفاتح عكا وموحد مصر وسوريا واليمن وفلسطين.

أضاف الكاتب إلى العنوان، عنوانا تلخيصيا تضمّن تعريفا بالرواية وتحديدا لإطارها الزماني والمكاني، وجاء فيه: (تتضمن انتقال مصر من الفاطميين إلى الأيوبيين على يد صلاح الدين، مع وصف طائفة الإسماعيلية المعروفة بالحشاشين). وبذلك ضم العنوانُ التلخيصي روايةَ "صلاح الدين الأيوبي" إلى سلسلة " روايات تاريخ الإسلام" . وقد صدرت رواية "صلاح الدين الأيوبي "سنة (1913).

زمن القصة:(565هـ-569هـ):

تغطي الرواية فترة حكم الأيوبيين لمصر ، كما تتضمن سردا لأخبار الفاطميين ونهاية حكم الخليفة العاضد الذي كان آخر ملوك الفاطميين . كما تناولت أخبار طائفة الإسماعيلية التي انفصلت عن الفاطميين في القرن الثامن الميلادي، واشتهرت هذه الطائفة ما بين القرن الثامن والقرن الرابع عشر، وقد أورد جرجي زيدان سردا تاريخيا طويلا عن الحشاشين في الرواية(ينظر الرواية، ص81 وما بعدها).

تبدأ الرواية بسرد وقائع زيارة" نجم الدين" والد صلاح الدين لمصر سنة (565هـ) وتنتهي بتولي صلاح الدين الخلافة في مصر سنة (569هـ).وقد تضمن زمن القصة المحصور بين هاتين السنتين أحداثا كثيرة، كان بعضها متخيّلا ولكنّه مندغمٌ في الأحداث التاريخية بشكل كامل. وقد ركّز جرجي زيدان في هذه الرواية على وصف الصراعات السياسية والمذهبية والدينية والاجتماعية في مصر ، مثل الصراع

المذهبي بين السنة والشيعة ، مُسبغا على هذه الوقائع سمتا دراميا يتمّ تعزيزه بقصة الغرام المتخيّلة بين "ستّ الملك" و"عماد الدين" .

اقترن الاستهلال في رواية صلاح الدين الأيوبي بمشهد أداره المؤلف على شخصيتين متخيليتين هما:" العمّ حسن" وعمر المُكاري، وكانا شهود عيان على واقعة خروج الخليفة العاضد لدين الله لاستقبال " نجم الدين" وقد جاء مصر زائرا ، ومن خلال الحوار الدائر بين الشخصيتين، و من منظورهما أيضا - نرى موكب خروج الخليفة .و نطلّع من ثمة على الكثير من التفاصيل، وإذ تنتهي الرواية بأن آلت خلافة مصر إلى صلاح الدين ، فإنّ الرواية بذلك تكون كلاسيكية الحبك، تتتابع أحداثها تصاعديا من المحكي الابتدائي إلى الأحداث اللاحقة ثم النهاية.

الرؤية السردية:

تغلب على الرواية الرؤية من الخلف، حيث السارد العليم يروي بضمير الغائب الأحداث، ويصور الشخصيات ويرصد حركتها، دون أن يغوص- مع ذلك- في تحليل ذهن الشخصية وسبر أغوارها ، لأنّ الشخصيات تتراءى مكتملة البناء ، وهي تمثيل لمنظومة قيمية مطلقة، خيّرة أوشريرة دائما.

الأساليب السردية:

يهيمن على الرواية أسلوب سردي مرسل لا يتقيّد بالسجعات ولا يتوسّل صنعة البديع،مثلما كان شأن بعض التآليف الرائجة من قبل ؛ مثل كتاب " تخليص الإبريز في تاريخ باريز" لرفاعة الطهطاوي (1834)،وبدرجة أقلّ حديث عيسى بن هشام(1898) لإبراهيم المويلحي. كما يمتد السرد و المشاهد التي يتخلّلها حوار طويل لا يكشف عن المنظور الذاتي للشخصيات بقدر ما يدفع إلى الأمام دفة الأحداث أو يقدّم تفسيرا لما حدث.

التاريخي والمتخيّل في رواية صلاح الدين الأيوبي:

قامت رواية "صلاح الدين الأيوبي" على الجمع بين الحدث التاريخي والحدث الروائي المتخيّل ، وخلال ذلك وقع تحوير الكثير من الأحداث التاريخية ، كما أعاد جرجي زيدان تشكيل الشخصية التاريخية بما يناسب تصوّره للحبكة الروائية، وقد اخترنا تقديم صورة كلّ من "صلاح الدين" و"ست الملك" ، مثلما تمّ لجرجي زيدان رسمهما في الرواية، لنتبيّن التفاوت بين الشخصية التاريخية المرجعية والشخصية المتخيّلة.

<u>صورة صلاح الدين</u> : لم يعط جرجي زيدان شخصية صلاح الدين، دورا رئيسا في الرواية كما يوحي بذلك عنوانها ، والأمر نفسه لمسناه في روايات أخرى، مثل رواية "فتح الأندلس" التي لم تبرز فيها شخصية

طارق بن زياد (1903) إلاّ بشكل باهت، فبعض العناوين إذن مُراوغة وهي تؤدي وظيفة استقطابيّة وترويجية للعمل ليس أكثر.

وإذا كانت الكتب التاريخية قد أثبتت الدور التاريخي العظيم لـ "صلاح الدين الأيوبي" في معارك الفتوح الإسلاميّة، فإنّ جرجي زيدان قد جرد هذه الصورة الأيقونية من بعدها الرمزي المعروف سلفا لدى القارئ ، وألبسها سمت التناقض ، وتمّ ذلك على لسان السارد العليم ، أو من منظور عديد الشخصيات التي تولّت مهمة إدانة هذه الشخصية/ الأيقونة أو إنصافها ، وفيما يلي بعض المقاطع التي يترائ فيها صلاح الدين الأيوبي في وضع أشبه بالاتهام والريبة .

" ولمّا فرغ الخليفة " العاضد" من تبديل الثياب، ألقى نفسه على السرير وقد أحسّ بانحطاط عزيمته. فقال أبو الحسن وهو يلهث :" بماذا يشعر مولاي أمير المؤمنين"(...) فقال وهو يلهث من شدة الحمى: شعرت بهذه القشعريرة منذ ركبت في هذا الموكب لملاقاة **هذا الكردي**. آه كيف أقوى على احتمالهم **وقد سلبوني ما في يدي من سيادة وثروة؟** وأنا مع ذلك لا أقدر إلاّ أن أجاملهم و ألاطفهم وأرحب بهم ." (...) إلى متى الصبر يا أبا الحسن. كأنّك لم تعلم بما فعلوه معي . ولم تسمع إلا مجاملتهم لي بالكلام ومخاطبتي بالإمارة. **إنّهم لم يتركوا لي من الإمارة سوى لفظها. إنّ يوسف صلاح الدين هذا ...عزل قضاة مصر لأنّهم من شيعتنا وولى قضاةً شافعية على مذهبه . وقبض على مرافق البلاد بيد من حديد**. (الرواية،ص 27-28.)

تعالج عقدة الرواية،إذن موضوع الصراع على السلطة وحكم مصر، بين صلاح الدين من جهة والعاضد وأبي الحسن من جهة ثانية ، ففي حوار دار بين نجم الدين وصلاح الدين ، تنكشف أبعاد هذا الصراع ، ومن خلاله يكشف السارد لعبته التخييلية القائمة على إظهار صلاح الدين بمظهر الطامع في ملك مصر، يقول نجم الدين :"فبقاؤك هنا سواء كان باسم نور الدين أو باسمك جشع، وإنّما تعدّه حقا إذا كنت تستطيع تنفيذه، فالحق هو القوة يا بني، تلك هي شريعة الفاتحين. " ثمّ يعلّق السارد على كلام "نجم الدين" بهذه الطريقة" وكانت حجة نجم الدين قوية إلى درجة لم يقو معها صلاح الدين على الدفاع وكاد يفحم،ولكنّه كان طامعا في البلد، ويريد أن يتذرع بأيّة وسيلة كانت لتحقيق ما يريد".

وفي موضع آخر، يقول أحد مستشاري العاضد نقلا عن أبي الحسن للعاضد: "يرى أبا الحسن يا مولاي أنّ العقدة التي يجب حلّها إنّما هي يوسف صلاح الدين هذا ، فإذا ذهب تخلّصنا من كلّ الشرور، وأبو الحسن يسعى لإنقاذنا منه".

ثم يعود السارد إلى استعادة صورة صلاح الدين الأيقونية فيُجري على لسان "ست الملك" حديثا فيه شجبٌ لخطاب الإدانة السابق، ونفيٌ للتّهم التي طالته على لسان العاضد وأبي الحسن وآخرين، يقول السارد :" ثمّ هي (سيدة الملك أخت العاضد) منصفة لا ترى صلاح الدين يستحق القتل لأنّه لم يعمل عملا يستوجب ذلك ،

وإنّما هي نعرة السيادة تحمل طلابَها على انتحال الأسباب الباطلة. فنظرت إلى أخيها وقالت: " تريد أن تقتل صلاح الدين وتستبدل به أبا الحسن هذا ؟ .

قال:"لا. لكنه إذا استطاع قتله سميته ولي العهد".

قالت: " ولماذا هذا العمل. ولماذا تريد التخلص من صلاح الدين؟...

قال:" تسألينني عما أفعله؟ كأنّك لا تعلمينه؟"

-قالت : ربما كنت أعلمه.لكنني أحبّ أن أسمع ذلك من أمير المؤمنين."

- قال: "إنّه جعل كلّ النفوذ له ولم يبق لي غير الاسم"

قالت: وهل كان لك النفوذ قبله"....

فقال: لكنّه استبد وغير وبدل و..."

- قالت: " وإن كان استبدّ فإنما استبدّ في رفع الظلم عن النّاس. وكانت المكوس لا تحتمل فرفعها أو خفضها ..."

2- صورة ست الملك:

اختلق جرجي زيدان قصة غرامية بين ست الملك أخت العاضد و"عماد الدين" وهو من خاصة صلاح الدين الأيوبي ، أما ست الملك بنت العزيز أخت الحاكم بأمر الله الفاطمي صاحب مصر، فهي

شخصية تاريخية عاشت في مرحلة تاريخية تسبق قيام دولة الأيوبيين و نهاية حكم العاضد سنة567هـ. وبذلك نتبيّن أنّ جرجي زيدان لم يكن يتحرى تماما صحة الوقائع التاريخية، ولم يكن الهدف –من تأليف رواياته - تعليم التاريخ ، إذ نتساءل : هل يُعلّم التاريخ مُلَفَّقًا بهذا الشكل ؟ وإنّما كان جرجي زيدان يكتب رواياتٍ تستقطب قراء جريدة الهلال ، وفيها تنفسح آفاق التخييل و تلفيق الأحداث وجمع ما لا يجمع من الوقائع والشخصيات والمصائر.

عمد جرجي زيدان- كما رأينا- إلى إدخال تعديلات كثيرة على شخصية ست المملك ، فجعلها أختا للعاضد بدلا من الحاكم بأمر الله، وهي تقع في حبّ منقذها عماد الدين الذي أنقذها من محاولة خطف دبرها أبو الحسن،وهنا يلجأ جرجي زيدان إلى اختلاق هاتين الشخصيتين لحبك قصة الغرام في الرواية، فعماد الدين هو من رجال صلاح الدين وأكثرهم قربا منه، في حين يدعي أبو الحسن أنّه فاطمي النسب ، وأنّه من أبناء عمومة العاضد، وقد أراد "ست الملك" زوجا له طمعا في الخلافة ، فأخذ يدبّر المكائد للتخلّص من غريمه .

و لا يلبث صلاح الدين أن يعمل بنصيحة عيسى الهكاري- وهو من رجاله أيضا – فيخطب "ست الملك" عساه يحقق بهذه المصاهرة حلم الخلافة على مصر، لكن ست الملك ترفض الزواج بصلاح الدين وأبي الحسن معا ، وتتسارع أحداث الرواية، ويتآمر الفاطميون على صلاح الدين فيقضي عليهم و يدين له أمر مصر، بخاصة بعد قرب وفاة

العاضد وتنتهي الرواية بلقاء الحبيبين بين يدي صلاح الدين، ويسعد هذا باجتماع شملهما، أما القارئ فيسقط في يده ويخيب أمله حينما يكتشف أنّ الرواية التي تسمّت باسم صلاح الدين ، لم تعط له إلاّ دورا ثانويا في الرواية.

عنوان الحصة التطبيقية الثانية: المنفلوطي في روايته الرومانسية المُعرَّبة"الشاعر".

1- التعريف بالمنفلوطي:

هو من مواليد 1887 بصعيد مصر ومن خريجي الأزهر ومن حفظة القرآن الكريم، عُرف عنه التزامه الديني وتشبّعه بمبادئ رجال الإصلاح ولا سيّما شيخه محمد عبده. توفي سنة 1924.

من آثاره النظرات التي دبّج فيها مقالاته، والعبرات وهي قصص يغلب عليها الحسّ الرومانسي . كما قام المنفلوطي بتعريب نصوص أدبيّة غربية منها :

-الفضيلة أو (بول وفرجيني) لبرنردان ده سان بيير(1737-1814).

-Bernardin De Saint pierre ,Paul et virginie(1788).

- ماجدولين أو (تحت ضفاف الزيزفون)، ألفونس كار(1809-1890).

-Alphonse Karr. sous les tilleuls(1832).

- الشاعر أو(سيرانو دي بيرجراك)، أدمون روستان(1868-1918).

-Cyrano de Bergerac. Edmond Rostand (1897).

2- أسلوبه في تعريب " سيرانو دي بيرجراك" :

لم يكن المنفلوطي يترجم النّص، روايةً كان أو مسرحية أو قصة عن النص الأصلي ، وإنّما عن ترجمات حرفية له إلى اللّغة العربيّة ، وكان ذلك ديدنه في رواية" الشاعر" يقول المنفلوطي شارحا طريقته في التعريب :" أطْلَعَني حضرة الصديق الكريم الدكتور محمد عبد السلام الجندي على هذه الرواية التي عربّها عن اللغة الفرنسية تعريبا حرفيا حافظ فيه على الأصل محافظة دقيقة، وطلب إلي أن أهذّب عباراتها ليقدّمها إلى فرقة تمثيلية تقوم بتمثيلها ففعلتُ، واستطعتُ في أثناء ذلك أن أقرأ الروايةَ قراءة دقيقة، وأن أستشف أغراضها ومغازيها التي أراد المؤلف أن يضمنّها إيّاها ؛ فأعجبني منها الشيئ الكثير، وأفضل ما أعجبني منها أنّها صوّرت التضحية تصويرا بديعا ، وهي الفضيلة التي أعتقد أنّها مصدر جميع الفضائل الإنسانيّة ونقطة دائرتها، فرأيتُ أن أحوّلها من القالب التمثيلي إلى القالب القصصي ، ليستطيع القارئ أن يراها على صفحات القرطاس كما يستطيع أن يراها على مسرح التمثيل . وقد حافظت على روح الأصل بتمامه، وقيّدتُ نفسي به تقييدا شديدا فلم أتجاوز إلاّ في حذف جمل لا أهميّةلها ، وزيادة

بعض عبارات اضطرتني إليها ضرورة النقل والتحويل واتساق الأغراض و المقاصد ، بدون إخلالٍ بالأصل والخروج عن دائرته ، فمن قرأ التعريب قرأ الأصل الفرنسي بعينه، إلاّ ما كان من الفرق بين بلاغة القلمين، ومقدرة الكاتبين، وما لا بد من عروضه على كلّ منقول من لغة إلى أخرى، وخاصة إذا قيّد المعرب نفسَه وحبس قلمَه عن التصّرف والاقتتان."(الشاعر، مصطفى لطفي المنفلوطي،المقدمة.)

من نّص هذا التقديم يمكننا استنباط طريقة المنفلوطي في التعريب، ونوجز ذلك فيما يلي:

- التعريب عند المنفلوطي ليس ترجمة حرفية للسرديات الأدبية الأجنبيّة التي ينقلها ، وإنّما **كتابة أدبيّة ثالثة للنّص**، تعتمد على الترجمات الحرفية للنصوص إلى اللغة لعربية، لا على النصوص في لغتها الأصلية.

- طوّع المنفلوطي السرديات المُعرّبة لخصائص اللغة العربية وآساليبها البلاغية ، كما طوّع هذه النصوص للسياق الثقافي والأدبي والذوق السائد في البئية الجديدة المُسْتَقْبِلة،

- أوتي المنفلوطي أسلوبا بليغا وبيانا ساحرا ، فاستطاع أن يُعرِّب السرديات الأجنبيّة تعريبا- ينعته المنفلوطي نفسُه بأنه نقل دقيق - غير أنّ ذلك التعريب لم يخل من التصرّف وفق ما تقتضيه مقاصد

المؤلف الذي غلب على نصوصه الاحتفاء بالفضائل و النزعة والرومانسية .

- غالبا ما ينحو المنفلوطي إلى تحويل جنس النّص المُعرّب، فـ"سيرانو دي بيرجراك" كانت في أصل وضعها مسرحية قام بتحويلها إلى رواية.

3- الخصائص الجمالية في رواية"الشاعر":

لا تخلو هذه الرواية من آثار النزعة الرومانسية، ويمكن إيجاز ذلك في النقاط الآتية:

- تؤرخ الرواية لسيرة البطل الشاعر " سيرانو دي بيرجراك" وهو شاعر فرنسي عاش في القرن السابع عشر ،وقد اشتهر بنزعته الثورية وعشقه للحرية على طريقة الرومانسيين،وعرف بتمرده على تقاليد المجتمع الفرنسي ، ورفضه لكلّ أشكال التصنّع والنفاق الاجتماعي، يقول سيرانو مخاطبا حبيبته:" **نريد أن نفارق هذا العالم المملوء بالأكاذيب والأباطيل، والصوروالتهاويل، إلى أفقٍ طاهرٍ نقيّ، صافٍ مترقرق، نتكاشف فيه ونتراءى، ويتحدث كلٌّ منا إلى صاحبه بلغةٍ تشبه في جمالها وحسنها، وبساطتها وطهارتها، ورقتها وعذوبتها، ذلك الأفق الجميل الذي نسبح فيه، ونطير في أجوائه...**".

- تقوم الرواية على قصة حبّ مثالية بين سيرانو دي بيرجراك وابنة عمه "روكسان" . وتنتهي قصة هذا الحبّ العفيف بموت سيرانو في مشهد عجيب تكتشف خلاله روكسان حبّ سيرانو لها وهو بين يديها يحتضر ؟ فالرواية مستغرقة في شطحاتها الرومانسية التي قد لا تثير في قرائها اليوم شيئا من الشفقة والأسى ،بقدر ما تثير فيهم شعورا

بالغرابة،لأنّ هذه النغمة الرومانسية الحادّة لم تعد تتناغم مع الطابع المادي لحياتنا المعاصرة.

- تراءت صورة المرأة الحبيبة في الرواية بوصفها تمثيلا للجمال المطلق ، كما هو ديدن الرومانسيين ، يطلب "ليبريه" إلى صديقه سيرانو أن يصف له حبيبته فيقول: **" هي الوردة النضرة الناعمة التي تكمن حَيَّةُ الحُب السامة بين أوراقها، من رأى ابتساماتها رأى الكمال الإنساني كلّه، ومن رأى نظراتها رأى الدَعَةَ واللُّطفَ والرِّقة والعذوبةَ، وجميع معاني الحياة الطيّبة اللذيذة في كلّ حركةٍ من حركاتها، وإشارة من إشاراتها، ولفتة من لفتاتها، إنها شمسٌ تضيء الكون وتنير ظلماته، ليس في استطاعة "الزهرة" ربَّة الجمال، وهي جالسة فوق علياء عرشها العظيم، أن تضارعها في بهائها وجلالها ، ولا في استطاعة"ديانا" إلهة الحب حين تسير بخفة ورشاقة وسط الرياض الناضرة أن تحاكيها في مشيتها،وهي سائرة على قدميها الصغيرتين في مماشي بستانها."**

- لم تكن الرواية التي تؤرخ لحياة شاعر فرنسي ،أن تترك الاستشهاد بالشعر وأسماء الشعراء والروائيين و المسرحيين والفلاسفة والعلماء مثل هومير وسقراط وأفلاطون ،وفيها نقد لاذع لأولئك الذين ينعتهم البطل بـ "لصوص الأدب" ؛ أمثال موليير . فلنتأمّل هذا المقطع وهو يصف حيثيات عرض من مسرحي:

" بدأ الموسيقيون يوقعون على نغماتهم الرقيقة الشجية، وسكنت الجماهير تنتظر رفع الستار، فهمس لبريه في أذن راجنو :ترى هل

يظهر مونفلوري على المسرح الآن؟ قال: نعم، ما من ذلك بدٌّ؛ لأنّه صاحب الدور الأوّل في الرواية، ... وهنا دقّ الجرس ثلاث دقاتٍ ثمّ ارتفع الستار، فظهر مونفلوري على المسرح لابسًا ملابس راعٍ، وعلى رأسه قبعةٌ محلاةٌ بالورود مائلة إلى أذنه، وفي يده أَرْغُولٌ طويلٌ ينفخ فيه، فصفّق له الجمهور تصفيقًا كثيرًا، فشكرهم بإيماءة رأسه، ثمّ أنشأ يمثل دور فيدين، ويتغنى بهذه القطعة:

هنيئًا للذين يبتعدون عن قصور الملوك جَهْدَهُم، بل يعتزلون العالَمَ بأَسْرِه ، ويفرون منه إلى مكانٍ ناءٍ في مُنْقَطَعِ العمران، لا يرون فيه غير وجه الطبيعة الجميل... " .

- وصف الطبيعة:

عُنيت الرواية بوصف مدينة "باريس" ببيوتها وشوراعها ومطاعمها وساحاتها ، ووصف الريف الفرنسي بحقوله وفلاحيه ونسائه وفتياته الجميلات ، من قبيل هذا المقطع: **"ثمّ أمر البواب أن يفتح الباب الكبير على مصراعيه ففعل، فتجلى أمامه منظر باريس العام في ضوء القمر الساطع، فوقف هُنَيْهَة يتأمّل هذا المنظر البديع ويقول : آه !لقد طلع البدر وتلألأت أشعته، فاختفت باريس المظلمة، وحلّت محلها باريس المنيرة، ها هي ذي النجوم اللامعة تسطع في سمائها، وها هي ذي أشعة القمر تسيل على منحدرات سطوحها، وها هو ذا نهر السين يرتجف تحت أبخرته البيضاء ارتجاف المرآة السِّحرية .إن الطبيعة تهيئ لنا ميدانًا جميلًا للقتال الرهيب، فهيا بنا جميعًا إلى "باب نيل" ثم مشى، فمشى الجميع وراءه ينقلون خطواتهم على نغم الموسيقى."**

وهذا مثال آخر في وصف الريف : **" ثم هتف يا"برتراندو" أخرِج نَايَكَ من كِيسك، وَغَنِّ لهؤلاء الأطفال الشرهين تلك الأغنية**

الجاسكونية، التي تذكرهم ببلادهم ومعاهد طفولتهم ومغاني صباهم، فأخذ الرجل يغنيها ويجيد في توقيعها، وسيرانو يغني معه، فأطرق الجنود برءوسهم وقد تمثلت لهم بلادهم كأنها حاضرةٌ بين أيديهم، يرون جبالها ووديانها وغاباتها وأحراشها، ويرون الرعاة السُّمْر بقلانسهم الحمراء يسوقون أمامهم قطعان البقر والأغنام، والفتيات الجميلات في أثوابهن القصيرة حاملات جرارهن على رءوسهن وهن ذاهباتٌ إلى الغدران أو صادرات عنها."

تلك بعض مقاطع رواية"الشاعر" التي عربها المنفلوطي تعريبا جيّدا، على الرغم من كلّ النقد الذي طال أسلوبه في التعريب، وإن كانت سرديات المنفلوطي الرومانسية،مرتبطة بسياقات تأليفها وهي شاهدة على ثقافة عصرها، وهي وإن لم تكن تأليفا روائيا خالصا ، إلاّ أنّها أسهمت في إنضاج مفهوم الرواية بين ظهراني الكتاب والقراء وهيّأت التربة لاستقبالها بوصفها جنسا أدبيّا له بلاغاته الخاصة.

عنوان الحصة التطبيقية الثالثة: خصائص رواية زينب لمحمد حسين هيكل.

مقدمة:

تبوأت رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل مركز الصدارة وتوّجت بالريادة في مجال كتابة الرواية الفنيّة في أدبنا العربي منذ صدورها سنة1914 ، فهل هذه المكانة هي محصّلة تغيرات بنيوية وقيم جمالية أفرزتها رواية "زينب" دون سواها من روايات هذه القترة، أو أنّ لذلك خلفيات وأسباب أخرى؟

التعريف بمحمد حسين هيكل:

ولد محمد حسين هيكل بالدقهلية سنة 1888 ، وهوينتمي إلى طبقة أثرياء الريف، تخصّص في دراسة الحقوق، عمل في سلك المحاماة كما كان عضوا مؤسسا في حزب الأحرار الدستوريين .

من أعماله الأدبيّة: رواية زينب التي بدأ كتابها حين كان ضمن بعثة علمية بباريس سنة 1910، وله أيضا رواية " هكذا خلقت" أصدرها سنة 1955 ولكنّها لم تحز على القبول والشهرة التي حازتها رواية" زينب" ، ومن أعماله أيضا كتابه " ثورة الأدب" 1933.

سياقات التأليف وظروفها:

تولى هيكل بنفسه شرح ظروف كتابة رواية "زينب" في المقدّمة التي خصّ بها الرواية فيقول: " نشرت هذه القصة للمرة الأولى في سنة 1914 على أنّها بقلم مصري فلاح، نشرتها بعد تردّد غير قليل في نشرها وفي وضع اسمي عليها، فلقد بدأت كتابتها بباريس في أبريل سنة1910 ، وفرغت منها في مارس سنة 1911... فلما عدت إلى مصر في منتصف

سنة 1912، ثمّ لما بدأت أشتغل بالمحاماة في الشهر الأخير من تلك السنة، بدأت أتردّد في النشر، وكنتُ كلّما مضت الشهور في عملي الجديد ازددتُ تردّدا خشيةَ ما قد تجني صفة الكاتب القصصي على اسم المحامي ، لكنّ حبي الفتيّ لهذه الثمرة من ثمرات الشباب انتهى بالتغلّب عل تردّدي، ودفع بي لأقدم الرواية إلى مطبعة "الجريدة"كي تنشرها، وإن أرجأتُ نشر اسمَ الرواية ومؤلفها وإهداءها إلى ما بعد الفراغ من طبعها. واستغرق الطبع أشهرا غلبت فيها صفة المحامي على ما سواها، وجعلتني لذلك أكتفي بوضع كلمتي " مصري فلاح" بديلا من اسمي .

و ظهرت طبعة "زينب" الأولى قبل الحرب، وتناولها الكتاب بالنقد زمنا ونسبوها إلي ورآها بعضهم جديرة بالاعتبار والتقدير، ثم أنست الحرب الناس ما سواها، وأنستني أنا أيضا قصتي. فلما انتهت الحرب وقامت الحركة الوطنية وظهرت فكرة "المصرية" واضحة محترمة كما صورت لنفسي على غلاف"زينب" . ثمّ لما تركت المحاماة إلى الصحافة، وشغلت بالتحرير وبالكتابة، طلب جماعة من أصدقائي إلي أن أعيد طبع " زينب" ليطلّع عليها ناشئة هذا الجيل الجديد، وليروا فيها قصة مصرية تصف لهم ناحية من حياة بلادهم، وتدلّهم على صور من الجمال فيها لم يسبق الكُتّاب إلى وصفها. وتردّدتُ في إجابة طلب أصحابي كما تردّدت أوّل مرة في تقديم القصة لطبعتها الأولى، حتىّ إذا رأيت الأستاذ محمد كريم يطلب إلي إخراجها على لوحة السينما، ثم رأيت

بعد ذلك عنايته بهذا الإخراج، لم يبق للتردّد في إعادة الطبع محل. كما لم يبق سبب لمحو اسمي من الرواية بعد أن كتبت الصحف وعرف الناس أنها لي.)

يوضّح هذا الخطاب المقدماتي بعض الإشكاليات المتعلّقة بظروف التأليف ، منها صدور الطبعة الأولى من رواية "زينب"سنة 1914 غُفْلاً من اسم الكاتب الذي اسْتُعيضَ عنه بعبارة " مصري فلاح" وغياب الإشارة إلى نوع العمل "رواية" . يقول عبد المحسن طه بدر مثبتا هذا التخفي وراء عبارة :"مصري فلاح" : " ولم يجرؤ هيكل على وضع اسمه على روايته إلا في سنة 1929" .

ولعلّ من الأسباب التي تفسّر إغفال اسم الكاتب، فضلا عن تلك التي شرحها هيكل بنفسه، انخراط هيكل في العمل السياسي ، وإيمانه العميق بمبادئ حزب الأحرار الدستوريين الداعية إلى الدفاع عن الحقوق الوطنية في فترة متأزمة من تاريخ مصر، لذلك لم يكن الظرف العام يسمح بتبني خطاب أدبي ينضح بحديث المشاعر ويتغنى بقصص الحب والغرام ، حتّى وإن كان ذلك من قبيل الرمز .

تضيء لعبة التستّر وراء عبارة" مصري فلاح" الذوق الأدبي السائد في تلك الفترة ، إذ كانت الرواية جنسا أدبيا دونيا يُؤلف ويُقرأ بغرض التسلية وتزجية أوقات الفراغ. وكان ارتياد منطقة الكتابة الروائية

نقيصة كبيرة ستحط بالتأكيد من مكانة هيكل " المحامي"الاجتماعية والمهنية والسياسية .

الخصائص الجمالية:

وعلى الرغم من ظروف التأليف التي حالت دون تبني النّص حتى سنة 1929 ،فقد رجح موقف إثبات الريادة لرواية "زينب" ، وكان حديث النقاد عن الخصائص الفنيّة تحصيل حاصل أ و هو حديث لاحقٌ وُظّف أيضا لإثبات الريادة .

ارتبطت رواية "زينب" بسمات تمييزية ، أضحت بعد فترة بمثابة أنموذجٍ لروايات هذه الفترة ، ومن بين هذه السمات:

- الغربة و الحنين إلى الوطن: كان هيكل يفرغ مشاعر الشوق والحنين إلى بلده مصر في كلّ مشهد صاغه في رواية "زينب"، لذا كانت الرواية تعجّ بمناظر الريف المصري وصورة الحقول والمزارع والبيوت ، حتّى بلغ الأمر بحي حقي لأن يؤكّد بأنّها أفضل رواية كتبت في وصف الريف المصري، فلنتأمّل هذا المشهد الكلاسيكي وما تخلّله من وصف :

"فإذا ما تنفّس الصبح، وطلعت الشمس وبعثت بنورها على البسيطة، وتلألأ الطلّ تحت أشعتها، ثم بلغ به الإعجاب بنفسه أن لم يرض بمقامه السفلي، وطار يطلب السماء، فترك عيدان القمح ترجع إليها صلابتها — تعاون العمال جميعا على جمع ما حصدوا وأعدوه أحمالا ،في حين يرجع الآخرون أدراجهم إلى دورهم، فيقضون نهارا

قليلا نومه مشتغلين بتجريد بهائمهم التي تنتظر أيام الحرث القريبة. وهناك على شواطئ الغدران والترع يقضون ساعات نياما تحت الشجر تعوضهم من كدهم لعمل الليل المقبل. "

- التأثر بالمذهب الرومانسي: أعلن هيكل في مقدمة " الرواية عن تأثره الواضح بالأدب الفرنسي ، أما مظاهر ذلك في الرواية فتتجلى في:

أ - إقامة عقدة الرواية على قصة حبّ تنتهي غالبا بمأساة ما؛ بفراق الحبيبين أو موتهما أو موت أحدها. وكذلك كان موت زينب في نهاية الرواية بعد أن فتك بها الحبّ ومرض السلّ معا.؟

ب- وصف جمال الطبيعة وقد تماهى بوصف جمال البطلة "زينب" ، فالطبيعة البكر عند الرومانسيين هي ذريعة للهروب والتنفيس عن الأحزان و التعبير عن دفقات الشعور والتخفيف من وطأة الإحساس بالقهر وظلم المجتمع .

ج - تسجيل العادات ووصف أخلاق الفلاحين، وعلى ضوء ذلك تتجلى مظاهر الصراع بين قوة العرف الاجتماعي ونزعة التحرّر لدى الأفراد .

وفيما يلي هذا المقطع الذي نتوسّم أن يكون دالاً على أهمّ خصائص رواية زينب الجماليّة:

" في هاته الساعة من النهار حين تبدأ الموجودات ترجع لصوابها، ويقطع الصمت المطلق الذي يحكم قرى الفلاحين طول الليل أذانُ المؤذن وصوتُ الدِّيَكة ويقظة الحيوانات جميعا من راحتها، وحين تتلاشى الظلمة ويظهر الصباح رويدًا رويدًا من واء الحجبِ، في هاته الساعة كانت زينب تتمطى في مرقدها، وترسل في الجو الساكن الهادئ القائم تنهدات القائم من نومه. وعن جانبيها أختها وأخوها ما يزالان نائمين. فانسحبت هي من بينهما. وبعيون ما يزال فيها أثر النوم نظرت لكلّ ما حولها. ولم يدعها نسيم الصباح تترك مكانها، بل استندت إلى الوسادة وجاهدت أن تنظر لعلّها ترى ما في صحن الدار فلم تجد شيئا . وأدارت رأسها فإذا باب الغرفة موصد، ولا صوت حولها إلا ما يتنادى به رسل الإصلاح من أطراف القرية. (...)

وقد أبدعت الطبيعة في زينب وأعطتها بذلك تاجا معترفا به من كلّ صويحباتها، فإذا ساقك الحظ أيام الصيف، وخرجت في ليل غاب بدرُه، وتألقت نجومُه فخففت من سواد الليل ، وإن لم تقدر على تبديد ظلمته، أو كنتَ أسعد حظا واتخذك القمرُ رفيقا فأدلجت بين تلك المسطوحات الزراعية الكبيرة. ولم يكن لك بعد نقطة معيّنة إلا أن تسير في طريق لا تعرف سببا لسيرك فيه، وتندفع مجذوبًا بقوّة لا قبل لك على مقاومتها. ويسبقُ رأسُك قدمَك ، ويسوقك موقفك وذلك الجاذب وهواء الليل الجميل إلى أن تهمهم بين أسنانك، أوتنادي آهة المستحسنِ الطربِ، أو تدعو الليل يجيبك صداه، ولا تزداد في كلّ ذلك

إلاّ اتباعا لقائدك المحبوب. ثمّ تصل إلى نقطة تقف عندها، ولا تطاوعك قدمُك إلى أية ناحية أردت تحريكها، وتمدّ عنقك وتسترجعه، يستخفك الجمال ويلعب بقلبك الهوى، وتروح تائها عن كلّ ما حولك. ثم يرتفع ذلك الصوت الذي جذبك إلى موقفك ثانية، فتصيخ له بأذنك، وتصغي بكليتك، فإذا زينب تحدو والعاملات من بعد ذلك يجبنها.. تلك موسيقى الصيف في ليله البديع، ترسل في أذن الخليقة النائمة نغمة الهوى، وتبعث في قلوب العاملين العزاء عن ليلهم الساهر. وهل هذا الصوت الذي تردّده الظلمة الصامتة إلاّ مُهيّج في النّفس أجمل ما يعزيها عن كلّ مشقة؟!

فإن أنت تابعت سيرك، واتبعت الصوت حتّ صرت على مقربة منه، رأيت في البحر اللّجيّ من شعاع حائر في السماء الأطفال والفتيات وقد انثنوا فقبضوا بشمالهم على سيقان القمح النائم بعضه فوق بعض كأنّه نشوان طربٌ بتلك العوامل الكثيرة التي تبعث إلى قلب المحزون ما يستخفّه ويستهويه. وباليمنى على شراشرهم — تلك نصف الدائرة الحديدية التي وعت عهد فرعون وتسلّلت مع الزمان إلى عصرنا الحاضر.

وتصل عند العمال فإذا زينب بين الجمع في الطليعة، وقد انسدل إلى جانبها جناحان من العاملات، وكلّهن في جدهن وعملهن يُرددن حُداءها بعد أن حمله الهواء على موجاته ونادى به اللّيلُ الصامت في كلّ الأنحاء، والقمر قد انحدر إلى المغيب ينظر إليها نظرة قد ناله

الشحوبُ فهو ذاهلٌ في نشوته. وأحاطت بذلك غيطان القطن الأخضر الذي ما يزال طفلا.

ها هي ذي زينب في تلك السن ترنو إليها الطبيعة وما عليها بعين العاشق، فتغض طرفها حياءً، و وترفع جفونها قليلا قليلا لترى مبلغ دلها على ذلك الهائم، ثمّ تخفضها من جديد،وقد أخذت مما حولها ما ملأ قلبها سرورا ، وأضاف إلى جمالها جمالاً، وهكذا كلما اجتلى أحدهما من صاحبه نظرةً ذهبت منه إلى أعماق النّفس ، فانطبع الكلُّ في قلب الفتاة، وتوّجت الفتاة حياةَ الوجودِ المحيط بها. فهل قنع كلٌّ منهما بحظه ورضي نصيبه؟

فهنا،في هذا المقطع العيّنة، تحتشد بعض الموضوعات الأثيرة عند الرومانسيين ويأخذ بعضها برقاب بعض:جمال الطبيعة والمرأة والريف، وعمل الفلاحين في حقول القطن، وقصة الحبّ التي بدأت تتفتّح أكمامها ببين " رينب و"إبراهيم".